العلوم التى صاحبت تدوين السنة

كان القرن الثالث الهجرى أزهى وأسعد عصور السنة النبوية بأئمته المحدثين ومصنفاتهم النفيسة الخالدة ، وقد تمخضت بحوث الأئمة وتدوينهم للسنة الى علوم كانت قمة ماوصل إليه الفكر البشرى ، واصح ماعرف فى التاريخ من القواعد العلمية السليمة للرواية والأخبار ، ليس بعدها مجال للتثبت ، وقد نسج على منوال علماء الحديث كثيرون من علماء السلف فى سائر مجالاتهم العلمية الأخرى كالتاريخ ، والفقه ، والتفسير ، والأدب وغير ذلك .

وهذه العلوم هى ماتسمى : « بعلم أصول الحديث » أو علم الحديث « دراية » ذلك أن علم الحديث ينقسم الى قسمين :

الأول : علم الحديث رواية ، وهو علم يعرف به ما أضيف الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة ، ونقل ما أضيف من ذلك إلى الصحابة والتابعين على الرأى المختار .

الثانى : علم الحديث دراية وهو « علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن » كما قال الشيخ عز الدين بن جماعة ، وقال شيخ الاسلام أبو الفضل ابن حجر : أولى التعاريف له أن يقال : « معرفة القواعد المعرفة بحال الراوى والمروى » والتعريفان فى البحث عن الراوى والمروى من حيث القبول أو الرد .

وقد نشأت أصول هذا العلم مع نشأة الحديث ، إذ كانوا يطلبون من الراوى التثبت وينقدون المرويات . وقد ازداد الحرص على هذا منذ وقوع الفتن ، فكانوا يقولون : سموا(١) لنا رجالكم كما زاد الطلب أيضا عندما قام ابن شهاب الزهرى بجمع الحديث من حامليه فى الدفاتر والصحف .

ثم بعد ذلك كتب الامام الشافعى بعض المسائل فى كتابيه : « الرسالة » والأم وكان أول من ألف فى بعض بحوث هذا العلم هو الامام على بن المدينى ، كما تكلم فى مسائله

---

(١) تدريب الراوى ص ٥

البخارى ومسلم والترمذى من علماء القرن الثالث ، وقام الترمذى فأشاع مسائل هذا العلم وجمع بعضها فى خاتمة جامعة .

فتدوين علوم الحديث إذا ابتدأ فى أبواب ، وفى بعض أنواع منه أثناء المائة الثالثة وكانت مؤلفات علماء القرن الثالث فى هذا العلم غير جامعة لكل أنواعه فى كتب خاصة ، ولا مستقلة قائمة بذاتها ، وإنما تعرضوا لبحث هذه العلوم اثناء تآليفهم وجمعهم للمرويات ، فمنهم من جعلها مقدمة لمؤلفه كما فعل الامام مسلم ومنهم من جعلها خاتمة تبين مراده من المصطلحات كما صنع الترمذى فى آخر جامعة ،

وعنى الامام البخارى فألف كتبه فى التواريخ الثلاثة . الكبير والأوسط والصغير ، كما ألف أيضا فى تواريخ الرواة الامام محمد بن سعد (كتاب الطبقات الكبرى) وألف البعض فى الثقات كأبى حاتم بن حبان المتوفى سنة ٣٥٤ (كتاب الطبقات) وخصص البعض مؤلفات فى الضعفاء والعلل ككتاب الضعفاء للبخارى ، وكتاب الضعفاء للنسائى ،

ورأى بعض العلماء أن هذه الكتب قد تضمنت اصطلاحات خاصة بأهل الحديث وقواعد كثيرة لهم ، يعرف بها المقبول والمردود ، ففكروا فى تخليصها من هذه الكتب وجمعها فى علم خاص وتدوينها فى كتب مستقلة ، وكان ذلك فى القرن الرابع .. حيث نضجت العلوم وأستقر الاصطلاح ، فالف القاضى أبو محمد الحسن بن عبدالرحمن بن خلاد الرمهرمزى المتوفى سنة ٣٦٠ هـ كتاب (المحدث الفاصل بين الراوى والواعى) فجمع كثيرا من أنواع هذا العلم ، وكان من وضع كتابا مستقلا فى علوم الحديث ، ولكنه لم يستوعب جميع بحوثه ، ثم صنف الحاكم أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ كتابه : « (معرفة علوم الحديث) » ولكنه لم يهذب ولم يرتب ثم ألف الحافظ الخطيب أبوبكر البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ كتابا فى اصول الحديث سماه (الجامع لآداب الشيخ والسامح) ثم كثر التصنيف بعد ذلك وتتابع

وقد تفرعت الدراسة فى هذا الفن الى علوم كثيرة من أهمها :

علم الجرح والتعديل : وقد أدى حرص العلماء على معرفة أحوال الرواة لتمييز الصحيح من غيره الى نشأة علم الجرح والتعديل ، أو علم ميزان الرجال وهو علم يبحث عن الرواة من حيث ماورد فى شأنهم من تعديل يزينهم ، أو تجريح يشينهم ، وتكلم فى هذا

العلم كثيرون من عهد الصحابة الى المتأخرين من العلماء ، فمن الصحابة : ابن عباس ٦٨ هـ ، وعبادة بن الصامت ٣٤ هـ ومن التابعين سعيد بن المسيب ٦٣ هـ ، والشعبى ١٠٤ هـ .

أما ابتداء التصنيف ووضع الكتب فى الجرح والتعديل ، فلم يكن الا فى القرن الثالث وكان من أوائل الذين ألفوا فى هذا العلم : يحيى بن معين ٢٣٣ هـ ، وأحمد بن حنبل ٢٤١ هـ ومحمد بن سعد كاتب الواقدى ، والبخارى ومسلم وأبو داود السنجستانى والنسائى ثم تتابع التأليف بعد ذلك .. وألف ذلك أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالرحيم بن سعيد بن البرقى الزهرى مولاهم المصرى الحافظ المتوفى سنة تسع وأربعين ومائتين .

ومن كتب فى الثقات والضعفاء : أبو اسحاق ابراهيم بن يعقوب بن اسحاق السعدى الجوزجانى المتوفى سنة تسع وخمسين ومائتين . ومن نماذج التأليف فى هذا النوع كتاب الضعفاء للامام البخارى .

كتاب الضعفاء الصغير للامام البخارى

وقد نهج البخارى فى كتابه على ترتيب الأسماء حسب حروف الهجاء مبتدئا بحرف الألف حتى إذا ما استوعب من اسمه ابراهيم ، جاء بباب من اسمه اسماعيل ثم بباب من اسمه اسحاق ، ثم أيوب ، حتى إذا ما انتهى من حرف الألف ، جاء بباب « الباء » وهكذا الى باب الياء مثال ذلك قوله .

« ابراهيم بن اسماعيل بن مجمع بن جارية الأنصارى » يروى عنه وهو كثير الوهم يروى عن الزهرى وعمرو بن دينار يكتب حديثه .

ابراهيم بن اسماعيل بن أبى حبيبة المدنى الأنصارى الأشهلى عن داود بن الحصين ـ منكر الحديث . وهكذا الى أن انتهى من الأسماء جاء فى آخر الكتاب بالكنى من الضعفاء مثال ذلك :ـ

أبو الرجال : سمع النضر بن النضر عن أنس عن أبيه عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « منكر الحديث عنده عجائب »

أبو ماجد الحنفى عن ابن مسعود ، ويقال العجلى ، قال الحميدى عن ابن عيينة عن يحيى هو منكر الحديث .

أبو بكر بن عبدالله بن أبى سيرة المدنى ، ضعيف . وكان فى غالب الأحيان يراعى الترتيب فى اسماء الآباء .

وقد جعل لكل حرف بابا ، وتحت كل باب أبواب فرعية كل منها خاص باسم ومعنون به لكنه لم يلتزم بترتيب أبواب الأسماء على حروف المعجم فقدم من اسمه اسماعيل على من اسمه اسحاق . وطبع الكتاب بالهند سنة ١٣٢٥ هـ .

كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائى

رتب النسائى هذا الكتاب على حروف المعجم ، وقسمه الى أبواب جاعلا كل حرف من الحروف الهجائية بابا ، فبدأ بالألف فالباء ... الخ .

مثل : باب « ابراهيم » وذكر قائلا :

« ابراهيم بن اسماعيل بن مجمع ضعيف مدنى ، » ابراهيم بن اسماعيل بن أبى حبيبة ضعيف مدنى « وابراهيم بن عطية متروك الحديث واسطى » « أبراهيم بن الفضل متروك الحديث مدنى » فإذا ماأنتهى ممن اسمه ابراهيم انتقل الى باب من اسمه « أبان » . ثم الى باب من اسمه « أبى » فقال : « أبى بن العباس بن سهل بن سعد الساعدى ليس بالقوى ثم باب من اسمه « أيوب » ثم باب اسماعيل ثم باب اسحاق ، ثم باب أسامة وغيره ، ثم تتبع الحروف « بابا » « بابا » حسب ترتيبها الهجائى وهكذا ..

وبعد حرف الياء وهو الحرف الأخير اتى باب الكنى فقال : « ابو مطيع الخرسانى

ضعيف » وفى أخر الكتاب ذكر اسم أم الأسود « يروى عنها احمد بن يونس غير ثقة . فالامام النسائى حين يقدم فى هذا الكتاب الضعفاء والمتروكين لايقدمهم أسماء مجردة وانما يردفها بالرواة الذين اخذوا عنهم حتى يقف الباحث على مصدر الأخذ أثقة هو أم لا امنكر هو ؟ أمتروك ؟ وهكذا فيبين من روى عنه ويذكر حكمه عليه بالنكارة أو عدم الثقة وهكذا ...

ويلاحظ أنه فى ترتيب الأسماء رتبها حسب الحرف الأول منها فقط دون نظر الى بقية الحروف وجعل لكل اسم بابا كصنيع البخارى ، ولم يراع فى الترتيب أسماء الأباء الا قليلا ومع ذلك فإن الباحث لايلقى صعوبة فى الكشف فيه ، لأن اسم الراوى يذكر بخط كبير أول السطر ثم يتبعه ببيان حاله كما فى الطبعة الهندية سنة ١٣٢٥.

معرفة الصحابة : وهو من العلوم التى تناولها علماء مصر وغيرها بالدراسة والتصنيف، وتعتبر معرفة الصحابة ، « فنا هاما من أجل فنون علوم الحديث .

وقد عنى به العلماء ، فى القديم والحديث ، ولهذا العلم ثمرته العظيمة وهى : معرفة الحديث المتصل والمرسل .

قال الحاكم : « ١ » ومن تبحر فى معرفة الصحابة فهو حافظ كامل الحفظ فقد رأيت جماعة من مشايخنا يروون الحديث المرسل عن تابعى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتوهمونه صحابيا ، وربما رووا المسند عن صحابى يتوهمونه تابعيا » .

وقد ألفت فى معرفة الصحابة كتب ، مرتبة على الحروف أو على القبائل أو غير ذلك منها : ـ

(١) كتاب أبى بكر احمد بن عبدالله بن عبدالرحيم بن سعيد بن البرقى الحافظ الثقة المتوفى سنة سبعين ومائتين .

(١) علوم الحديث ص ٢٥ .

(٢) « كتاب المعرفة » لأبى محمد عبدالله بن محمد بن عيسى والمروزى الشافعى الحافظ المعروف بعبدان المتوفى سنة ثلاث وتسعين ومائتين .

(٣) معرفة الصحابة لأبى بكر احمد بن عبدالله بن عبدالرحيم بن سعيد بن البرقى الحافظ المتوفى سنة سبعين ومائتين .

(٤) كما ألف فى معرفة الصحابة أبو منصور محمد سعيد البارودى المتوفى سنة احدى وثلاثمائة .

(٥) « علم تاريخ الرواة » وهو علم يعرف به تاريخ رواة الحديث ورحلاتهم ومواطنهم ومواليدهم ورغباتهم وكثير من أحوالهم محاله أثر فى توهيمهم أو تفويتهم ، وأول من عرف عنه الاشتغال بذلك الامام البخارى ، وابن سعد فى طبقاته « ١ » ومن الف فى هذا : أبو الوليد احمد بن محمد بن الوليد بن عتبة بن الازرق بن عمرو بن الحارث الازرقى المتوفى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وقبل سنة سبع عشرة ومائتين ولنقدم هنا كتاب : « التاريخ الكبير » للامام البخارى كنموذج حى ، ومثال صحيح للتصنيف فى هذا القرن بالنسبة لعلم تاريخ الرواة .

التاريخ الكبير

حاول الامام البخارى فى هذا الكتاب أن يقدم ما استطاع أن يستوعبه من رواة - الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، ومن بعدهم الى طبقة شيوخه ، وقام بترتيب هذا الكتاب على حروف المعجم مبتدئا الكتاب بمن اسمه « محمد » تيمنا وتكريما للنبى عليه الصلاة والسلام ، وأعد البخارى فى هذا الكتاب لكل اسم بابا ، ورتب أسماء كل باب على حروف المعجم ، كما لاحظ هذا الترتيب كذلك فى الحرف الأول من أسماء الآباء ، ولكنه لم يراع ترتيب أبواب الأسماء على حسب حروف المعجم فذكر باب ابراهيم ثم باب اسماعيل ، ثم باب اسحاق ، ثم باب أيوب ثم باب أشعث وهكذا .

وقد ألف البخارى هذا الكتاب فى فجر شبابه ومستهل حياته العلمية ، وكان ذلك قبل أن

(١) تدريب الراوى ص ٤٥٠ ، علوم الحديث ومصطلحه ص ٦١٠ .

يؤلف الجامع الصحيح ، يقول البخارى : فلما طعنت فى ثمانى عشرة سنة صنفت قضايا الصحابة والتابعين ثم صنفت التاريخ الكبير فى المدينة عند قبر النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الليالى المقمرة ، وكل اسم فى التاريخ الا وله عندى قصة الا أنى كرهت أن يطول .

وكان تأليفه لهذا الكتاب حول مقام الرسول - صلى الله عليه وسلم - مما يزيده يمنا ويمده بالروحانية ، ولهذا فان الكتاب قد حظى بثقة كاملة من شيوخه وبتقدير عظيم ، ويدل تصنيفه هذا الكتاب على سعة علمه ، ونلاحظ على هذا الكتاب أن الامام البخارى كان يذكر اسم من يترجم له وبعض من روى عنهم وبعض الذين رووا عنه ، وقد يذكر حديثا لأحدهم إلا أنه قلما يذكر جرحا وتعديلا وأرى أن هذا راجع الى أنه استغنى عن ذلك بما ذكره فى كتابه الضعفاء .

وكان لهذا الكتاب أثره فيما ألف بعده من كتب ، فكان البخارى بحق باعث نهضة القرن الثالث فى تدوين السنة وفى تاريخ الرجال .

ورواة التاريخ الكبير هم :

(١) أبو الحسن محمد بن سهل بن كردى البصرى عنه .

(٢) ابو احمد عبدالوهاب بن محمد بن موسى الغندجانى عنه .

(٣) ورواية الشيخ الجليل ابى الحسين عبدالحميد بن عبدالخالق بن احمد بن عبدالقادر بن محمد بن يوسف عنه « ١ » .

كتاب التاريخ الصغير

وأما كتاب التاريخ الصغير للامام البخارى فقد اختصر فيه تاريخ النبى - صلى الله عليه وسلم - والمهاجرين والأنصار ، وطبقات التابعين ومن بعدهم ووفاتهم وبعض نسبهم ،

(١) التاريخ الكبير للبخارى ، طبع بمطبعة حيدر اباد الدكن بالهند سنة ١٣٦١ هـ .

وكناهم ومن رغب فى حديثه . والجزء الأول تحدث فيه عن أخبار مهاجرى الحبشة وفى آخره تحدث عن المهاجرين والأنصار الذين حدثوا عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتوفوا فى عهده . كما تحدث عمن توفوا فى عهد أبى بكر الصديق - رضوان الله تعالى عليه - ومن بعده من الخلفاء .

وأما الجزء الثانى من هذا الكتاب فابتدأه بذكر من مات فى عهد عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه - ثم بمن بعدهم الى ان انتهى من الجزء السادس حيث ذكر الذين ماتوا فى سنة ست وخمسين ومائتين .

واسم أم هانى بنت أبى طالب « هند » وقال البعض : اسمها فاختة « واسم أم حبيبة رملة » . ويلاحظ أنه فى آخر هذا الكتاب قال (هذا آخر كتاب التاريخ الكبير ، وعلى ذلك فهو جزء منه).

علم تأويل مشكل الحديث

ويسمى مختلف الحديث ، وهو التوفيق بين ما ظاهره التعارض من الأحاديث وأول من تكلم فى هذا العلم هو الامام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ - ، صنف فيه كتابه المعروف باختلاف الحديث ولم يقصد استيفاءه ، وإنما ذكر جملة منه ينبه بها على طريقة الجمع بين ماظاهره التناقض . ثم صنف فيه من علماء القرن الثالث ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ وسمى كتابه « تأويل مختلف الحديث »

وصنف فيه أيضا ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وأبو يحيى زكريا بن يحيى الساجى المتوفى سنة ٣٠٧ هـ .

معرفة غريب الحديث

وهو علم يعنى ببيان معانى بعض الكلمات الغامضة ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه

افصح الناس وكان يخاطب الوفود على مختلف ألسنتهم بما يفهمونه ، فلما كانت الفتوحات ، ودخل فى الاسلام كثير من العجم ونشأ جيل تشوب العجمة لسانهم خيف على الحديث النبوى أن يستغلق فهمه على بعض الناس فانبرى جماعة من أتباع التابعين ، فتكلموا فى غريب الحديث أمثال : مالك بن أنس وسفيان الثورى وأول من صنف فى غريب الحديث أبوعبيدة معمر بن المثنى التميمى المتوفى سنة ٢١٠ هـ وألف فيه من علماء القرن الثالث أيضا : أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ كتابا كان عمدة فى هذا الفن جمعه فى أربعين سنة .

ثم جاء ابن قتيبة الدينورى فنهج منهج أبى عبيد ، وصنف كتابه المشهور ، وممن صنف فيه أيضا الامام ابراهيم الحربى المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ويقال : إن أول من ألف فيه : أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادى الحافظ « كتابه » غريب الحديث والآثار » ولعل من ذهب الى ذلك يقصد أول من ألف فى غريب الحديث مع الاستقصاء فى الجملة ، والا فأول من ألف فيه على الصحيح النضر بن شميل المازنى ، وكتاب أبى عبيد هذا هو القدوة فى هذا الشأن وقد أفنى فيه عمره حتى لقد قال فيما يروى عنه : جمعت كتابى هذا فى أربعين سنة .

وألف في غريب الحديث كذلك أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى وأبو عمر شمربن حمدويه ؛ قيل فيه أنه قدر كتاب أبى عبيد مرارا ، توفى سنة ست وخمسين ومائتين . وكتاب ذيل كتاب ابن قتيبة لابى محمد قاسم بن ثابت بن حزم السرقسطى الأندلسى واسم كتابه (الدلائل فى شرح ما أغفله أبو عبيد وابن قتيبة الصوفي من غريب الحديث) وفيه قال أبوعلى القالى : ما أعلم أنه وضع بالأندلس مثل كتاب الدلائل ، قال ابن الفرضى : ولو قال : ماوضع مثله بالمشرق ما أبعده ، مات ولم يكمله فأتمه أبوه أبو القاسم ، وتوفى أبو محمد سنة اثنتين وثلاثمائة .

كتاب غريب الحديث لابن قتيبة

وكتاب غريب الحديث لابن قتيبة ، حذا فيه حذو أبى عبيد ، ولم يدون فيه شيئا من الأحاديث المدونة عنه فى كتاب أبى عبيد الا مادعت إليه حاجة من زيادة أو شرح بيان ، ولهذا كان كتاب ابن قتيبة مثل كتاب أبى عبيد أو أكبر منه .

ويعتبر هذا الكتاب من أوائل ما ألف ابن قتيبة ، وأنه قد ألفه قبل تأليف كتاب تأويل مختلف الحديث وقبل كتاب « الأشربة » والشعر والشعراء وقبل أدب الكاتب « وعيون الاخبار » وذلك لاننا نراه فى هذه الكتب يشير الى كتاب « غريب الحديث »

ويعتبر هذا الكتاب من الكتب النفيسة المفقودة التى لم تقع فى أيدينا وقد ذكر ابن الأثير أن ابن قتيبة قال فى مقدمة كتابه « وقد كنت زمانا أرى أن كتاب أبى عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث ، وأن الناظر فيه مستغن به ، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة فوجدت ماترك نحوا مما ذكر فتتبعت ما أغفل وفسرته على نحو مافسر « ١ »

معرفة علل الحديث

والعلة عبارة عن سبب غامض قادح فى الحديث مع أن الظاهر السلامة منه ، ويتطرق ذلك إلى الاسناد الجامع شروط الصحة ظاهرا .

وقد تطلق العلة على غير مقتضاها ككذب الراوى ، وغفلته ، وسوء حفظه ونحوها من أسباب ضعف الحديث وقد يطلقها بعضهم على مخالفة لاتقدح كإرسال ماوصله الثقة الضابط حتى قال : "من الصحيح صحيح معلل كما قيل منه صحيح شاذ"(٢) .

أما كيفية إدراك العلة ومعرفتها فهو : تفرد الراوى ومخالفة غيره له مع قرائن تضم إلى ذلك تنبه العارف بهذا الشأن على وهم وقع بارسال فى الموصول أو وقف فى المرفوع أو دخول حديث فى حديث أو غير ذلك بحيث يغلب على علته فيحكم بعد صحة الحديث أو يتردد فيتوقف فيه ، والطريق الى معرفته : جمع طرق الحديث والنظر فى اختلاف رواته وضبطهم واتقانهم .

والتصنيف على العلل هو جمع الاحاديث المعلة وتدوينها مرتبة ترتيبا موضوعيا مبينا فيها مع كل حديث علته ، وقد يلحق بعض المصنفين هذه الطريقة بطريقة المسانيد

---

(١) مقدمة النهاية لابن الاثير ص ٤

(٢) تدريب الراوى ص ١٦١ .

فيصنف مسنده معلا وممن صنف فى العلل "الامام علي بن المديني ، والامام احمد بن حنبل ، والامام البخارى والامام مسلم ، وأبو يحيى زكريا بن يحيى الضبى المتوفى سنة ٣٠٧ ، والامام الترمذى ، ونقدم هنا نموذجا للتأليف على العلل .

العلل الكبير للامام الترمذى

سار الامام الترمذى فى تصنيف العلل على درب الامام البخارى واعتمد عليه وعلى علمه وكتابه ، وكان يروى فيه كثيرا عن البخارى مما يدل على تأثره به وانتفاعه بعلمه . وقد اتقن الامام الترمذى هذا الفن وحذقه كما هو الشأن فى كتابه "الجامع" وغيره حتى قال فيه الحافظ الادريسى : صنف الجامع ، والتواريخ والعلل ، تصنيف رجل عالم متقن كان يضرب به المثل فى الحفظ وللترمذى كتابان فى العلل :

أحدهما : العلل الصغير ، "وهو الكتاب الذى ألحقه بجامعه ، وجعله خاتمة له .

والثانى : هو العلل الكبير ، وهذا هو الكتاب المقصود بقول المحدثين رواه الترمذى فى العلل ، ولكن مما يؤسف له ، أن هذا الكتاب غير موجود بأيدينا ، فهو من الكتب المفقودة ، ولعله يكون مخطوطا ضمن مخطوطات خزانات الكتب الاجنبية أو اندثر ضمن ما اندثر من تراثنا العزيز تحت غبار السنين والقرون .

وهذا هو مادعا البعض أن يقول : أنهما كتاب واحد .

ونرى أن كتاب العلل الكبير ، غير كتاب العلل الصغير ، لما روى من الأحاديث عن (العلل الكبير) وهى غير موجودة فى العلل الصغير .

ومثال ذلك مارواه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمر عن أخته حفصة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له) (١) .

---

(١) رواه ابو داود حـ٢ ص٣٢٩ ، والنسائى حـ١ ص ٣٢٠ والترمذى حـ١ ص١٤١ ، وابن ماجه حـ١ ص٥٢٠ .

وقد أهمل الترمذى وأحمد والنسائى هذا الحديث لمخالفته عبد الله بن أبى بكر بن عمر ابن حزم الذى تفرد به من هم أكبر منه قدرا كابن عيينة ويونس الايلى وغيرهما ممن رووه موقوفا على حفصة ، ولما رواه نافع فى رواية مالك موقوفا على ابن عمر ، كما ظهرت بعض القرائن فى ذلك وهى كثرة الاختلاف فى سند الحديث حتى رجحوا رواية الوقف على رواية عبد الله بن أبى بكر قال الترمذى فى العلل : (وهو خطأ ، وهو حديث فيه اضطراب ، والصحيح عن ابن عمر موقوفا) .

المشيخات

ومن الأنواع التى صنفت فى القرن الثالث كذلك "كتب المشيخات" وهى التى تنص على ذكر الشيوخ الذين لقيهم المؤلف وأخذ عنهم ، وأجازوه وإن لم يلقهم .

كمشيخة الحافظ أبى يعلى الخليلى ، ومشيخة أبى يوسف يعقوب بن سفيان بن حوان . المتوفى سنة سبع وسبعين ومائتين ومشيخته فى ستة أجزاء مرتبة على البلاد .

الطّبقات

ومن الأنواع التى صنفت فى هذا القرن أيضا "كتب الطبقات" وهى التى تنص على ذكر الشيوخ وأحوالهم ، ورواياتهم طبقة بعد طبقة ، وعصرا بعد عصر الى زمن المؤلف .

وممن ألف كذلك فى هذا القرن الثالث أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيبانى

العصفرى المصرى الحافظ أحد شيوخ البخارى ألف : "طبقات الرّواة" وتوفى سنة ثلاثين وقيل : سنة أربعين أو ست وأربعين ومائتين .

وألف الامام أبو حاتم محمد بن ادريس بن المنذر الرازى الحنظلى كتاب "طبقات التابعين" توفى سنة خمس أو سبع وسبعين ومائتين .

رواية الأكابر عن الاصاغر والآباء عن الأبناء

وهو من أهم الأنواع ، ومن فوائده الا يتوهم أن المروى عنه أفضل وأكبر من الراوى لكونه الأغلب فى ذلك ، ومنها الا يظن أن فى السند انقلابا . وهو أقسام :

(١) أن يكون الراوى أكبر سنا ، وأقدم طبقة من المروى عنه كالزهرى ويحيى بن سعيد الانصارى فى روايتهما عن مالك بن أنس .

(٢) أن يكون الراوى أكبر قدرا لاسنا كمالك فى روايته عن عبد الله بن دينار ، وأحمد ابن حنبل واسحاق بن راهوية فى روايتهما عن عبيد الله بن موسى العبسى .

(٣) أن يكون الراوى أكبر من المروى عنه من الوجهين معا كعبد الغنى فى روايته عن الخطيب ، وكالخطيب فى روايته عن ابن ماكولا[١] .

ومن الكتب المصنفة فى هذا النوع فى القرن الثالث : كتاب (مارواه الكبار عن الصغار والآباء عن الأبناء) .

تأليف الحافظ أبى يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن يونس بن المنجنيقى البغدادى الوراق نزيل مصر المتوفى سنة أربع وثلاثمائة[٢] .

والحق أن أنواع علوم الحديث كثيرة لاتعد وكما قال الحازمى : علم الحديث يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ مائة كل نوع منها علم مستقل ، لو أنفق الطالب فيه عمره لما أدرك نهايته .

علوم السنة

ولقد اجتهد المحدثون وصنفوا فى الجرح والتعديل ، ومعرفة الصحابة ، وتاريخ

---

(١) تدريب الراوى ص ٤٢٤ .

(٢) الرسالة المستطرفة .

الرواة ، ومعرفة الأسماء والكنى والألقاب ، وتأويل مشكل الحديث ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، ومعرفة غريب الحديث ومعرفة علل الحديث . وكانت مؤلفات علماء القرن الثالث فى علم المصطلح غير مستقلة ، وإنما تابعة لمؤلفات كبيرة كالامام مسلم فى مقدمة صحيحه ، والامام الترمذى فى خاتمة جامعة ، وهكذا .

وأما استقلال هذا العلم والتصنيف فى جميع بحوثه فلم يكن الا فى القرن الرابع على يدى الرامهرمزى ٣٦٠هـ .

وإذا ألقينا النظر على مؤلفات علوم السنة من لدن القرن الرابع الى آخر العصور المتأخرة نرى أنها لم تبلغ نضجها وتمامها فى التصنيف الا بعد القرن الثالث ، بخلاف المصنفات الاخرى فى علم الحديث رواية فانها وصلت الى مرحلة التمام والنضج فى القرن الثالث ، ولم تكن أعمال العلماء بعد هذا الا جمعا وترتيبا وتهذيبا .

وفى رأينـــا أن هذا راجع الى سببين : -

الأول : أن علماء القرن الثالث حملوا على عاتقهم مهمة جليلة وشاقة ، وهى تدوين السنة النبوية وتصنيفها ، فعنى بعضهم بتخليصها من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين وعنى الآخرون بتخليص الصحيح من غيره وتمييزه منه وهكذا .

وفى سبيل هذا العمل المضنى عاشوا للسنة حراسا ساهرين ، لاينطبق لهم جفن ولا تلين لهم عزيمة ، وجابوا الأقطار الاسلامية ، وقطعوا المفاوز النائية بل أن بعضهم ربما رحل الرحلات الطويلة لسماع حديث واحد ، فانشغالهم بهذا العمل الضخم لم يكن ليمكن لهم من طول البحث أو كثرة التصنيف فى علوم السنة خاصة وأنهم ليسوا فى حاجة كبيرة الى مثل هذه التصانيف لأنهم حملوا مقاييسهم وشروطهم فى السند والمتن وعلى ضوئها دونوا مادونوا مشافهة .

الثانى : أن علماء القرن الرابع لم ينشغلوا بمثل ماانشغل به أهل القرن الثالث الذين كفوهم عناء البحث فوجدوا فى مصنفاتهم مايريدون .

ثم ان الرواية الشفاهية فى عهدهم فترت والرحلات العلمية قلت ، فكان لديهم نوع من الاستقرار دعاهم لأن يتموا مابدأه سلفهم بالنسبة لعلوم السنة ، فتوفر لهم الوقت وأنارت لهم السبيل بعض بواكير سلفهم من اهل القرن الثالث فأخذوا فى استكمال هذه العلوم حتى بلغت نضجها وكمالها .

وإذا تتبعنا مراحل التصنيف فى هذه العلوم نرى أنها تمت ونضجت بعد القرن الثالث

أولا : بالنسبة "للجرح والتعديل" صنف فيه ابن أبى حاتم ٣٢٧هـ ، وأحمد بن نصر البغدادى ٣٢٣ هـ ، وابن منده ٣٩٥ هـ ، وهؤلاء من أهل القرن الرابع ، كما صنف فيه من أهل القرن الخامس : أبو بكر البرقاني ٤٢٥ هـ وأبو الفضل الفلكى ٤٣٨ هـ ، وأبوالوليد الباجى ٤٧٤ هـ ، وأبو عبد الله الحميدى ٤٨٨هـ .

ومن أهل القرن السادس : ابن طاهر المقدسى ٥٠٧ هـ ، وأبو موسى المدينى ٥٨١هـ ، وأبوالقاسم بن عساكر ٥٢٣هـ ، وأبو بكر الحازمى ٥٨٤هـ ، وعبد الغنى المقدسى ٦٠٠هـ ،

ومن أهل القرن السابع : ابن الصلاح ٦٤٢هـ ، والحافظ المنذري ٦٥٦ هـ ، وأبو شامة ٦٢٥هـ ، وابن دقيق العيد ٧٠٢هـ .

ومن أهل القرن الثامن : ابن تيمية ٧٢٨هـ ، والحافظ المزى ٧٤٢هـ وابن سيد الناس ٧٣٤هـ والعراقى ٨٠٦هـ وابن حجر ٨٥٢ هـ وهكذا ظهر في كل عصر من الأئمة الاعلام من وزنوا الرواة بميزان العدل ، ومنهم من تكلم على الضعفاء ومنهم من اقتصر على الثقات ومنهم من جمع بين النوعين .

ثانيا : بالنسبة لمعرفة الصحابة : وهو فن رفيع من الفنون الحديثية يعرف به الاتصال والارسال ألف فيه أبو موسى المدينى ، وابن عبد البر وكتابه "الاستيعاب فى معرفة الأصحاب" يعتبر من أحسن المؤلفات في هذا الفن ، و"أسد الغابة" لابن الأثير ٦٣٠هـ ، واختصره الحافظ الذهبي ٧٤٨هـ في كتابه "التجريد" وابن حجر العسقلانى ٨٥٢هـ ألف كتابه "الاصابة فى معرفة الصحابة" .

ثالثا : علم تاريخ الرواة : ويبحث فى تاريخ كل راو ورحلاته وتاريخ مولده ووفاته وأغلب أحواله التى لها دخل فى تعديله أو تجريحه ، ومن ثمرات هذا العلم :

أ ـ معرفة السابق واللاحق من الأحاديث ، وبذلك يمكن الوقوف على الناسخ والمنسوخ فلا يكون هناك تعارض .

ب ـ معرفة مايقبل من أحاديث الثقات قبل اختلاطهم .

ج ـ معرفة الموضوع من الاحاديث وذلك عن طريق معرفة ما اذا كان البعض لم يلتق بمن حدث عنه ، ومن المصنفات فى ذلك : "الوفيات" لعبد الله ابن أحمد بن ربيعة الربعى الدمشقى ٣٧٣هـ ، ومن العلماء من ألف في رجال الصحيحين ، كابن طاهر المقدسى ٥٠٧هـ ، ومنهم من ألف فى رجال السنن الأربع كأحمد بن أحمد الكردى ٧٦٣هـ ، "تهذيب التهذيب" وتقريب التهذيب لابن حجر ٨٥٢هـ .

رابعا : معرفة الاسماء والكنى والألقاب : ومن الكتب المصنفة فى ذلك : كتاب "المنى فى الكنى" للسيوطى ، وكتاب "الاسماء والالقاب" لابن الجوزى ٥٩٧هـ .

ومن هذه الأنواع كتب مؤلفة فى المتفق والمفترق للخطيب البغدادى وكتب فى المؤتلف والمختلف للدار قطنى .

خامسا : تأويل مشكل الحديث ألف فيه ابن الجوزى ٥٩٧هـ كتابا سماه : "التحقيق فى أحاديث الخلاف".

سادسا : الناسخ والمنسوخ : وممن ألف فيه أبو بكر زين الدين محمد بن أبى عثمان الحازمى المتوفى سنة ٥٨٤هـ وسمى كتابه : الاعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار" .

سابعا : معرفة غريب الحديث ، وممن ألف فيه أبو سليمان الخطابى ٣٧٨هـ ، وجار الله أبو القاسم الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ ، وابن الجوزى ، وابن الأثير ٦٠٦هـ وسمى

كتابه : "النهاية فى غريب الحديث والاثر" ولخصه السيوطى المتوفى سنة ٩١١ فى كتاب سماه "الدر النثير تلخيص نهاية ابن الاثير" .

ثامنا : معرفة علل الحديث ، ألف فيه الدار قطني وابن حجر ، واسم كتابه "الزهر المكلول فى الخبر المعلول" .

تاسعا : الموضوعات ، ألف فيه بعض العلماء كتبا حصرت الأحاديث المكذوبة ، ومنها "تذكرة الموضوعات" لابن طاهر المقدسى و"الموضوعات الكبرى" لابن الجوزى و"اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة" للسيوطى و"تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة على سيد المرسلين "لمحمد البشير ظافر أبى عبد الله المالكى المتوفى سنة ١٣٢٥هـ .

هذه نبذة عن بعض أنواع هذه العلوم ، وهى كثيرة لاتحصى ، وكما قال الحازمى : "علم الحديث يشتمل علي أنواع كثيرة تبلغ مائة ، كل نوع منها علم مستقل ، لو أنفق الطالب فيه عمره لما أدرك نهايته ، وقد ذكر ابن الصلاح منها خمسة وستين" "١" أهـ .

وقد سبق الكلام عن تاريخ نشأة هذا العلم ، وأن أول من صنف فيه القاضى أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزى المتوفى سنة ٣٦٠هـ فى كتابه "المحدث الفاصل بين الراوى والسامع "نعم كانت هناك مصنفات قبله ، ولكنها كانت فى بعض الفنون ، أما كتاب الرامهرمزى فيعتبر أعظم ماألف فى زمانه جميعا لأنواع هذا العلم ، وإن لم يستوعب جميع المسائل ثم تتابع التأليف بعد ذلك ، فظهرت الكتب الكثيرة والمنظومات والمختصرات .

أثر رواية الحديث فى رواية العلوم الأخرى

لم يعن العرب قبل الاسلام بالرواية وتصحيح الأخبار وتمحيص المرويات ، لأن مروياتهم لم يكن لها من القداسة مايدعو الى ذلك ، ففيها الأساطير والأحاديث المختلفة .

---

(١) تدريب الراوى ص ١٤ .

أما الرواية فى الاسلام ، وفى الحديث خاصة فقد شدد العلماء فيها ، وقعدوا لها القواعد ، وصاغوا لها الشروط ، وأصلوا لها الأصول بعناية فائقة تعتبر أدق ما وصل اليه النقد فى القديم والحديث وكان من مميزات الرواية فى الاسلام وخصائصها الاسناد الصحيح المتصل برواية العدول الضابطين :

ولقد ظل العلماء يتحرون الدقة ، ويعنون بالتثبت من الأخبار ونقدها سندا ومتنا ، ونظروا للاسناد على أنه من الدين ، قال عبد الله بن المبارك : "الاسناد من الدين ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء" (١) .

وقال صالح بن أحمد الحافظ : "سمعت أبا بكر محمد بن أحمد يقول : (بلغنى أن الله حفظ هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها : الاسناد ، والأنساب ، والاعراب) .

ويقول محمد بن حاتم بن المظفر : "أن الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالاسناد ، وليس لأحد من الأمم كلها قديمهم وحديثهم اسناد وانما هى صحف فى أيديهم وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم وليس عندهم تمييز بين ماألحقوه بكتبهم من الأخبار التى أخذوا عن غير الثقات .

وهذه الأمة إنما تنص الحديث من الثقة المعروف فى زمانه المشهور بالصدق والامانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ ، والأضبط فالأضبط ، الأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة ثم يكتبون الحديث من عشرين وجها وأكثر حتى يهذبوه من الغلط "٢" .

ومما سبق يتضح أن الاسناد من خصائص هذه الأمة ، وقد رغب كثير من الأئمة الحفاظ فى الرحلة الى الاقطار الاسلامية طلبا لعلو الاسناد ، قال الامام أحمد بن حنبل "الاسناد العالى سنة عمن سلف" (٣) .

وللرواية فى الاسلام أثرها الكبير فى العلوم الأخرى :

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ١٠٥ .
(٢) شرف أصحاب الحديث ص٧٩ مخطوط بدار الكتب المصرية .
(٣) الباعث الحثيث لابن كثير ص١٦٠ .

فلقد تأثر بعلماء الحديث ومناهجهم وأسانيدهم كثير من العلماء فى كثير من علوم اللغة والآداب والتاريخ والسير ، وقلد أئمة السنة فيما يأتى : -

(١) كانوا يذكرون السند ، فمثلا يقول[(١)] ثعلب فى أماليه : "حدثنى أبوبكر بن الانبارى عن أبى العباس عن ابن الاعرابى ، قال : يقال : لحن الرجل يلحن لحنا فهو لاحن إذا أخطأ ، ولحن يلحن لحنا فهو لحن إذا أصاب وفطن" .

(٢) سار كثير من علماء اللغة على نمط علماء الحديث في ترتيب كلمات اللغة وأطلقوا اصطلاحات يظهر فيها التأثر الكبير باصطلاحات الحديث ، قالوا : فصيح وأفصح وجيد وأجود ، وقالوا أيضا : ضعيف ومنكر ومتروك ، كما صنع رجال الحديث فى قولهم مثلا صحيح وحسن وضعيف وقالوا : أو فى بالعهد أفصح من وفى بالعهد لأن الأولى لغة القرآن .

(٣) قاموا بتجريح بعض الرواة وتعديلهم شأنهم فى ذلك شأن علماء السنة فعدلوا الخليل بن أحمد وأبا عمروبن العلاء ، وجرحوا قطربا .

(٤) كانت لهم محاولات فى تدوين الكلمات ، وكانت لهم طريقتان :

الأولى : دونوا فيها الكلمات حسبما اتفق دون ترتيب .

والثانية : وضعوا الكلمات المتعلقة بموضوع واحد فى موضع واحد كما وضع المحدثون بالنسبة لمرحلة التدوين على المسانيد وعلى الأبواب .

(٥) يظهر للناظر فى كتب تراجم الادب صيغة المحدثين واضحة ككتاب الاغانى فاننا نراه يسير على غرار اسناد المحدثين ، كقوله مثلا : أخبرنى الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه عن أبى عبيده ، قال : بلغنى أن هذا البيت فى التوراة :

من يفعل الخير لايعدم جوازيه لايذهب العرف بين الله والناس

---

(١) ضحى الاسلام : أحمد أمين جـ٢ ص٢٥٨ .

وكانت المؤلفات فى تراجم الشعراء وطبقاتهم على نمط طبقات المحدثين كما صنع ابن سلام حيث وضع طبقات الشعراء ، وابن قتيبة ، كل ذلك على نمط صنيع المحدثين .

المقارنة بين رواية الحديث ورواية العلوم الاخرى

لم تبلغ الرواية فى العلوم الاخرى شأو مابلغته رواية الحديث ، ولم تلق من العناية مالقيته لدى المحدثين من دقة النقد وتمحيص المرويات ولم يتمسك رواة العلوم الاخرى بالاسناد طويلا كما تمسك به المحدثون ، فلم نر لعلماء اللغة مثلا معجما مسندا كما هو الشأن فى صحيحى البخارى ومسلم ، بل ان ماجمعه علماء اللغة لم يكن كله فى درجة واحدة من الثقة والصحة ، فقد تسلل اليه الوضع والفساد ، وحامت حوله الشكوك والشبهات ويرجع ذلك الى أسباب يمكن اجمالها فيما يأتى : -

(أ) ان سائر العلوم واللغات فيما سوى القرآن الكريم والسنة النبوية لم تتمتع بالقداسة والاكبار كما هو الشأن فى هذين الأصلين الشريفين .

(ب) أن الالفاظ اللغوية لاتقع تحت حصر ، فلو حاول العلماء تدوين كل كلمة وكل اشتقاق عن طريق الاسناد لوصل بهم الامر مدى لايحصى .

(جـ) أن بعض علماء اللغة لم يكونوا على جانب كبير من الثقة فيما يروونه كما هو الحال بالنسبة للمحدثين .

(د) أخذ بعض علماء اللغة عن الكتب والصحائف فى العصور الاولى ولم تكن يومئذ منقوطة ولامشكولة ، الا ماكان فى القرآن الكريم فقط وهكذا نرى أن هذه المحاولات لم تكن ، وإنما كانت خطرات عابرة وأمثلة قاصرة ولم يبلغ هؤلاء ولاغيرهم من المؤرخين وكتاب السير شأو المحدثين لأن النظرة عند كل منهم مختلفة .

فالمحدثون نظروا على أنه دين وتشريع له قداسته وصيانته واحترامه ، أما كتاب

التاريخ والأدب واللغة فلم تصل نظرتهم فيما دونوه الى ما وصلت إليه نظرة أهل الحديث .

ويتضح لنا الفرق بين النظرتين بما صنعه ابن جرير الطبرى فى كتابه التفسير حيث تحرى الدقة فى الرواية أكثر مما صنع فى كتابه التاريخ ، وهذا راجع الى تغاير النظرتين .